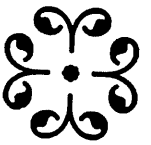

صالح
عليه السلام
نبى ثمـــود

ثمود قبيلة مشهورة، كانت تُسَمَّى باسم

جدهم ثمود أخى جديس،

وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ

وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحِجْر

الذى بين الحجاز والشام ووادى القُرَى

وقد مر به رسول الله ﷺ

وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين،

obeikandl.com

وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، وهو عبد الله ورسوله صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجز بن ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح.. وقد دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأَمَرَهُم أن يخلعوا عبادة الأصنام والأنداد، ولا يشُركوا به شيئا. فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهَمُّوا بقتله، وقتلوا الناقة التى جعلها الله حُجَّةً عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِى أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(١).

وقال تعالى فى سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا

(١) الأعراف: ٧٣.

قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[3].

لقد أرسل الله عز وجل نبيه صالحًا إلى قوم ثمود، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وذَكّرَهُم بنعم الله العظيمة عليهم، إذْ جعلهم خلفاء من بعد قوم عَادٍ، ومكّنَ لهم فى الأرض، حيث كانوا

(١) هود: ٦١ ـ ٦٨.
(٢) الحجر: ٨٠ ـ ٨٤.
(٣) الإسراء: ٥٩.

ينحتون من الجبال بيوتًا وقصورًا عظيمة، وطلب منهم أن يُقابلوا نعم الله الجليلة بالشكر وبالعبادة الخالصة لله وحده، وحذرهم من مخالفته والعدول عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة.

وذَكَّرَهُمْ أيضًا بأن الله هو الذى خلقهم وأنشأهم من الأرض، وجعلهم عُمَّارَها، وأعطاهم ما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزَّاق، وهو المستحق للعبادة وحده، وطلب منهم أن يستغفروا الله ويتوبوا إليه.

فما كان منهم إلاَّ أن قابلوا دعوته النبيلة بالجحود والنكران، والتعالى والتكبر، وقالوا: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ إننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب. وقالوا له أيضًا: إنما أنت من المُسَحَّرِين، أى: إنك سَاحِرٌ مسحورٌ لا يدرى ما يقول مثلنا.

وسألوه أن يأتى بأمر خارق للعادة يدل على صدق ما جاء به.

وذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا فى ناديهم، فجاءهم رسول الله صالح عليه السلام فدعاهم إلى الله، وذَكَّرهم، وحَذَّرهم، ووعظهم، فقالوا له: إنْ أنتَ أخرجت لنا من هذه الصخرة ـ وأشاروا إلى صخرة هناك ـ ناقةً وَصِفَتُهَا كَيْتَ وَكَيْتَ[1] وذكروا أوصافًا طويلة، ونَعَتُوهَا وتَعَنَّتُوا فيها، وأن تكون عُشَرَاءَ[2]، طويلة

(١) كَيْتَ وكَيْتَ: كذا وكذا، وهى كناية عن القصَّة والأُحدوثة، ولا تُستعملان إلاَّ مكررتين.
(٢) عُشَراء: العُشَرَاءُ من النوق ونحوِها: ما مَضَى على حَمْلِهَا عَشرَةُ أشهر.

من صفتها كذا وكذا. فقال لهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن أَجَبْتُكُمْ إلى ما سألتم، علىَ الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به، وتصدقوننى فيما أُرسلت به؟ قالوا: نعم. فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.

معجزة الناقة

قام صالح ـ عليه السلام ـ إلى مُصَلاَّه، فصلى لله عَزَّ وجَلَّ ما قُدِّرَ له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبه إلى ما طلبوا.

فأمر الله عَزَّ وجَلَّ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشَرَاء على الوجه الذى طلبوا، فلما عاينوها كذلك رَأَوْا أمرًا عظيمًا، ومنظرًا هائلاً، وقُدْرَةً باهرة، ودليلاً قاطعًا، وبرهانًا ساطعًا، فآمن بعَضُهُم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم، ولهذا قال: فَظَلَمُوا بها، أى جَحَدُوا بها ـ يعنى: أكثرهم ـ ولم يتبعوا الحق بسببها[1].

وقال لهم صالح عليه السلام: هذه ناقة الله لكم آية[2]، أى: دليلاً على صدق ما جئتكم به، فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذابٌ أليم. والماءُ قِسْمَةٌ بينكم وبينها: لكم شِرْبُ يومٍ، ولَهَا شِرْبُ يومٍ.

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ص ١٠٨.

(٢) أضافها لله سبحانه وتعالى تشريفًا وتعظيمًا، كقوله: بيت الله، وعبد الله.

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وتَرِدُ الماءَ يومًا، بعد يوم، وكانت إذا وَرَدَتِ الماءَ تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لِغَدِهم. ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: «**لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يومٍ معلوم**».

وظَلَّ القوم لا حديث لهم إلاَّ ناقة صالح، فمنهم المندهش المتعجب لما يَرَى، ومنهم المتحير، ومنهم المُكذِّب، ومنهم المؤمن، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ**﴾[1] أى اختبار لهم: أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون، فارتقبهم: أى انتظر ما يكون من أمرهم، واصطبر على أذاهم، فسيأتيك الخبر على جلية ﴿**وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ**﴾[2]. أى: كُلُّ نصيبٍ من الماء يَحْضُرُهُ صاحِبُه فى نَوبَتِه.

فلما طال عليهم هذا الحال، اجتمع زعماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها، ويتوفر عليهم ماؤهم، وزَيَّنَ لهم الشيطان أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿**فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[3].

(١) القمر: ٢٧.
(٢) القمر: ٢٨.
(٣) الأعراف: ٧٧.

وكان الذى تولى عَقْرَها منهم رئيسهم قُدَارُ بن سَالِف، وكان أَحْمرَ أَزْرَقَ أَصْهَبَ، وكان يُقال إنه وَلَدُ زانية، وُلِدَ على فراش سَالِف، وهو ابن رجل يقال له صبيان، وكان فِعْلُهُ ذلك ـ يعنى عَقْر الناقة ـ باتفاق جميعهم[1].

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما «صَدُوق»، كانت ذات حَسَب ومال، وكانت تحت رجل مِمَّنْ أَسْلَم، ففارقته، فدعت ابن عَمٍّ لها يقال له «مُصَدَّعٌ» وعرضتْ عليه نفسها إنْ هو عقر الناقة. واسم الأخرى «عُنَيْزَة» وكانت عجوزًا كافرة، لها بنات أربع حِسَانٌ من زوجها ذؤاب بن عمرو، أحد الرؤساء، فعرضت بناتها الأربع على قُدار بن سالف إنْ هو عقر الناقة، له أىُّ بناتها شاء. فَانْتدب هذان الشابان لعقرها، وَسَعَيَا فى قومهما بذلك، فاستجاب لهما سبعة آخرون، فصاروا تسعة، وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُون** ﴾[2].

وسَعَى هؤلاء فى بقية القبيلة، وحَسَّنُوا لهم عقرها، فأجابوهم إلى ذلك وطاوعوهم فى عقرها، وحَسَّنُوا لهم عقرها، فَعَقَدُوا بينهم اجتماعات اتفقوا فيها على الخِطَّةِ التى يَتَّبِعُونَها فى عَقْر الناقة.. وجاء

(١) قصص الأنبياء: ١٠٩.
(٢) النمل: ٤٨.

اليوم الذى حَدَّدُوهُ فيما بينهم، وأَتَوْهَا وهى على مَوْرِدِ مَائِهَا تشرب، فأحاطوا بها، وَصَعِدَ «مُصَدَّعٌ» على رَبْوَةٍ فرماها بسهم، فانتظم عظم ساقها، وجاء النساء يحضضن القبيلة فى قتلها ـ بعد أن صَدَّهم هيبتها عن الإجهاز عليها ـ وحَسَرْنَ عن وجوههن ترغيبًا لهم فى ذلك، فأسرع «قُدَارُ بنُ سالَف» فَشَدَّ عليها بالسيف، فكشف عن عُرقوبها، فخرَّتْ ساقطةً إلى الأرض، وَرَغَتْ رُغَاءً عَظيمًا تُحَذِّرُ فَصِيلَهَا ـ أَىْ وَلَدَهَا ـ عندئذ بَادَرَهَا «قُدَارٌ» فَطَعَنَهَا فى لَبَّتِها ـ أَى: رقبتها ـ فَنَحَرَهَا. وانطلق فَصِيلُهَا فصعد جبلاً منيعًا، وَقَدْ نَفَر نفورًا شديدًا حينما رأى ما حَلَّ بأمه.

وَقِيل: إنَّ القَتَلَةَ جَرَوْا وراءَهُ وتَتَبَّعُوه حتى أدركوه، فأحاطوا به وسط الصخور وأجهزوا عليه. وَرَغَا الفصيلُ ثلاثًا، ثم مات.

قال الله تعالى: ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[2].

(١) القمر: ٢٩، ٣٠ ومعنى فتعاطى: أى: تَنَاوَلَ الناقَةَ بسيفه اجتراءً منه.

(٢) الشمس: ١٢ ـ ١٥ انبعث أشقاها: قام مُسرعًا يعقر الناقة. ناقة الله وسقياها، أى: احذروا عَقْرهَا ونصيبَها من الماء.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1]. فجمعوا فى كلامهم هذا بين كُفْرٍ بليغ من وجهين:

الأول: أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية.

والثانى: استعجالهم العذاب.. فاستحقوا هذا العذاب من وجهين أيضًا:

أحدهما: الشرط عليهم فى قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[2].

ثانيهما: استعجالهم على ذلك.

فلهذا أنذرهم صالح ـ عليه السلام ـ وقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[3]، أى: لم يَبْقَ فى عُمُرِكُم غيرُ ثلاثة أيامٍ. فلم يصدقوه أيضًا فى هذا الوعد الأكيد، بل لما أَمْسَوْا هَمُّوا بقتله، وأرادوا ـ فيما يزعمون ـ أن يلحقوه بالناقة، يقول الله تعالى فى سورة النمل: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: لنكبسنه فى

(١) الأعراف: ٧٧.
(٢) هود: ٦٤.
(٣) هود: ٦٥.

داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نَجْحَد إنْ طَالَبنَا أولياؤه بدمه، ولهذا قالوا: ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[1].

وفى السورة نفسها يقول الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[2].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارةً رضختهم فأهلكتهم سلفًا وتعجيلاً قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس ـ وهو اليوم الأول من أيام النَّظِرَة ـ ووجوههم مُصْفَرَّةٌ، كما أنذرهم صالح ـ عليه السلام ـ فلما أمسوا نَادَوْا بأجمعهم: ألا قد مضى يَوْمٌ من الأَجَل. ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل ـ وهو يوم الجمعة ـ ووجوههم مُحْمَرَّةٌ، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل. ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع ـ وهو يوم السبت ـ ووجوههم مُسْوَدَّةٌ، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مَضَى الأَجَل، فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا[3] وتأهبوا، وقعدوا صامتين واجمين مُستسلمين ينظرون ماذا

(١) النمل: ٤٩.

(٢) النمل: ٥٠ ـ ٥٣.

(٣) أى: دهنوا أجسامهم وأكفانهم بالمِسْكِ والعنبر وغير ذلك من الحِنَاطِ.

يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يُفْعَلُ بهم، ولا من أى جهة يأتيهم العذاب، فلما أشرقت الشمس جاءتهم صَيْحَةٌ من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا فى دارهم جاثمين، جثثًا لا أرواح فيها، ولا حراك بها، قالوا: لم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مُقْعَدَةً، واسمها: «كلبة بنت السلق»، ويقال لها «الذريعة»، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح ـ عليه السلام ـ فلما رأت العذاب أُطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شئ، فأتت حَيًّا من العرب فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها، واستسقتهم ماءً، فلما شربت ماتت[1].

والتفت صالح إلى مدينة الأموات قبل أن يُوَلِّىَ عنها وقال يخاطب أهلها راثيًا لحالهم:

يا قومُ: لقد حَذَّرْتُكُم وأنذرتكم، وأبلغتُكم رسالةَ ربى، ونصحتُ لكم، ولكنْ لا تحبون الناصحين!.

وهكذا تتوالى المعجزات والعبر لبنى البشر حتى يتعظوا، فهل يعتبرون ويتعظون؟!!

(١) قصص الأنبياء: ص ١١٢.

obeikandl.com